مصطلح الصناعة وعلم النحو العربي

دكتور/ســـلام عبد الله محمود عاشـــور
أستاذ مشارك في النحو العربي والصرف

جامعة الأقصى /غزة
كلية الآداب

قســـم اللغة العربية

ملخص

المصطلح ضرورة حتمية لكل علم من العلوم؛ لأنه اختزال لخبرات بعض العلماء وزمنهم في علم ما، ويتعارف عليه بين علماء هذا العلم أو ذاك، وهذا البحث يتناول مصطلح الصناعة، إذ إنه شاع في علوم اللغة العربية، ثم حاول النحاة قصره على علم النحو، لذا فالبحث قام بدراسة عينة عشوائية من علوم العربية، بعد أن فرق بين معناه اللغوي ومعناه الاصطلاحي، وعرض لخصائص النحو العلمية التي يتمتع بها، وتبين أنه كان يستخدم في كثير من علوم العربية ثم انحسر بصورة أو بأخرى بمعناه الاصطلاحي الدقيق في علم النحو، وأن أبا علي الفارسي كان أول من أشار إليه في بعض كتبه، وتبعه ابن جني حيث أكثر من استخدمه في كتابه الخصائص خاصة، ثم انتشر بين نحاة المشرق والمغرب، وأن بعض المؤلفات النحوية لم تستخدمه، ومنها ما استخدمه بمعناه اللغوي .

Abstract

An Idiom is very necessary, because it's a condensation of learned men's Experiences in a given field of knowledge and well established among them. This paper deals with the idiom " Sina'a" which was frequently used Arabic sciences, Then, Grammarians tried to restrict it to grammar. Consequently, The paper provides a rapid historical account of a random sample of Arabic books.

The study revealed that some books did not use it. Although some of the books used it in it's linguistic meanings, others used it in it's idiomatic meaning. At last it was restricted in it's minute idiomatic meaning in grammar.

It became evident that Abu Ali Alfaeisi was the first to refer to it in his books. Followed by Ibin Jini who used it with it's extended attributes. Afterwards, it spread among the East and West.

مقدمة:

النحو العربي عاش فترة ممتدة من التاريخ جعلته راسخ القدم عالي النسق لذا احتوى علـى كثـير مـن المصـطلحات العلمية التي ترسخ تجربته العلمية التي عاشها على مر العصـور والأزمان؛ لأن العلماء يضعون خلاصة تجاربهم في مصطلح من المصطلحات حتى يستطيع من بعدهم فهم العلم بسهولة ويسر، و يستغلها فيما بعد للبناء عليها، وليتطور العلـم وتسهل عملية التعليم، فالمصطلح عصارة أفكار العلماء واجتهاداتهم في أي علم ، واخـتزال لمعلومات شتى يضعها العلماء تحت تصرف الأجيال، والنحو العربي ليس بدعاً عن غيره من العلوم.

ولقد شاع مصطلح الصناعة في علوم العربية، واستخدمه المتأدبون واللغويون كثيراً، ومنهم النحاة حتى أصبح يدرج في عناوين كتبهم، وربما أصبح علماً على علم النحو لدى بعض النحاة في مصنفاتهم التي بين أيدينا، والبحث يلقي الضوء على هذا المصطلح، وتطوره في علوم العربية ثم انحساره على علم النحو عند بعض النحاة كما يركز على مدى توافر خصائص مصطلح الصناعة في علم النحو.

معنى مصطلح الصناعة وأهميته :

معلوم أن الاصطلاح والاتفاق ضدّ الإفساد، و المصطلح عليه ، هو المتفق عليه(1)، أي يمكن القول اصطلح أمر الرجل أي أصبح صالحاً، لا يقلق على شيء، والمصطلح فيه جانب تعمدي ، يتعمد العلماء فيه "نقل لفظة من معناها اللغوي لدى شعب من الشعوب ، أو أمة من الأمم إلى معنى تصطلح عليه جماعة معينة من هذا الشعب، أو تلك الأمة في فرع من فروع المعرفة الإنسانية" (2)

ويهدف العلماء من وراء وضع المصطلحات تحقيق ما سبق وتحقيق "درجة عالية من

انتظام التنسيق بين المعنيين بالمصطلحات العلمية والتقنية، بهدف تقنيين الاستخدام وتحديد المقابلات الدقيقة"(3)، فضلاً عن أن "تحديد المقصود بالمصطلح يقي عثرات يمكن أن يقع فيها الباحث، كما أنه لا يكون واضحاً لدى المتلقي، ولكل علم كما لكل مهنة مصطلحاته التي يجب أن يكون المشتغلون به على خبر ودراية بها"(4)

أما تعريف الصناعة لغة فمن المعلوم أن الصناعة مصدر للفعل صنع، وقد جاء في اللسان "صنعه يصنعه صنعاً، فهو مصنوع، وصنع عمله...، والصناعة :حرفة الصانع وعمله الصنعة، والصناعة ما يستصنع من أمر، ورجل صنع اليد، وصناع اليد من القوم،صنعي الأيدي"(5)، ويقولون: "فلان يرقم في الماء، إذا كان صنع اليدين، يقال: رجل صنع اليدين، إذا كان رقيقاً حاذقاً، وامرأة صناع إذا كانت حاذقة بكل ما تعمله"(6)

وربما أطلق هذا المصطلح على شيء آخر فقد جاء أنه يقال:"الصنَّاع والصنَّاعة أيضاً :خشب يتخذ في الماء ليحبس به الماء، أو يسوى به ليمسكه حيناً"(7)

أما اصطلاحاً فإنه لا يبعد كثيراً عن اللغة، وقد عرفه بعض العلماء بأنه "ملكة نفسانية يصدر عنها الأفعال الاختيارية من غير روية، وقيل العلم المتعلق بكيفية العمل"(8)

أما عن صدور الأفعال من غير روية فهو أمر غير مسلم به، ويرده ما جاء في تعريف بعضهم من أن الصناعة "كل علم مارسه الرجل سواء كان استدلالياً أو غيره ، حتى صار كالحرفة له، فإنه يسمى صناعة ...، وقيل:الصنعة (بالفتح) العمل، والصناعة قد تطلق على ملكة يقتدر بها على استعمال المصنوعات على وجه البصيرة لتحصيل غرض من الأغراض، والصناعة (بالفتح) تستعمل في المحسوسات و بالكسر في المعاني"(9)، بل إنَّ منيم من جعل التمكن والتدرب السبب في تسمية العامل صانعاً؛ لأن "كل عامل لا يسمى صانعاً، ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه، و يتدرب وينسب إليه" (10)

وهذا التعريف مع سابقه يمكن أن يقبل ؛لأنه أدق من غيره فقد جعل التدريب والحذق هو السبيل لإطلاق الصانع على العامل والصنعة على العمل، ولا يخص العمل المحسوس، بل يمكن أن يطلق على المعاني أي العلم و الفكر، كما ذكر ابن خلدون عندما ذهب إلى أن "الصناعة ملكة في أمر عملي فكري ...، والملكة صفة راسخة تحصل عن

استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته"(11)

ومن هنا يمكن أن نطلق على العلم صناعة، فهل كان النحاة يقصدون بالصناعة علم النحو أو القواعد والقوانيين التي تخص تقعيد اللغة ؟ وما مدى توفر شروط الصناعة في النحو العربي؟

وهنا لابد من التفريق بين الصناعة العلم المضبوط والملكة اللغوية فقد استقر كما سبق عند العلماء أن "الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال"(12) وأن "صناعة العربية إنما "هي معرفة قوانيين هذه الملكة ومقاييسها"(13)، وليس كما ذهب الجرجاني حيث جعل "الصناعة ملكة نفسانية يصدر عنها الأفعال الاختيارية من غير روية"(14)

أي أن الصناعة تختلف عن الملكة التي تحدث عنها الجرجاني فأي صناعة تحتاج إلى قوانيين وخصائص تميزها عن غيرها من الصناعات كما تحتاج إلى دربة وممارسة، أما الملكة التي يقصدها الجرجاني فهي تعبر عن الأفعال الاختيارية التي تصدر عن الإنسان من غير تعمد في التفكير، وبلا دربة كما كان العرب القدماء يتكلمون العربية، ولم يتعلموا قواعدها.

الصناعة والمعرفة:

العلم المضبوط (الصناعة) هو الجهد الفكري والذهني الذي يقوم به العالم ، أو الفرد الذي يريد أن يصبح عالماً ، ولكن هذا الجهد مقرون بخصائص علمية محددة لا يمكن الاستغناء عنها، فليس كل فكر أو جهد ذهني يمكن أن يطلق عليه علم، وعليه فإن قوة أي علم من العلوم ومدى ترابط مسائله واستمرار بقائه، مرتبط ارتباطاً قوياً بمدى توافر الخصائص العلمية التي حددها العلماء واتفقوا على أكثرها، منها: "الضبط في القواعد والقوانيين، والتفسير في الكليات والجزئيات التطبيقية والنظرية، والتوقع لما يمكن أن يطرأ على المنظومة العلمية من تغيرات في المستقبل"(15)، وقد ذهب بعض اللغويين المحدثين إلى أن المنهج المناسب لدراسة اللغة لابد أن يتمتع بسمات عدة هي :الوضوح والدقة والنظامية والموضوعية والشمول واليقين (16)

وقد ذهب الأستاذ الدكتور تمام حسان إلى التفريق بين الصناعة و الفن وسمى

الصناعة العلم المضبوط، والفن العلم غير المضبوط، فالعلم المضبوط تتوافر فيه خصائص عـدة تقترب مما ذكر سابقاً، هي الموضوعية ولها دعامتان :الاستقراء الناقص، وصلاحية النـتائج للتحقق والضبط، والثانية الشمول وله وسيلتان: الحتمية، وتجريد الثوابت، والثالثة التماسك وله طريقتان :عدم التناقض بين فكرة وأخرى، والتصنيف، والرابعة الاقتصاد وله مظهران: الاستغناء بتناول الأصناف عن تناول المفردات، والتقعيد.(17)

وهـو هنا جعل التصنيف و التجريد أساسين من الأسس التي تمكن من السيطرة على مفردات كل علم، ولولا توافرها "لما قامت حياة علمية من أي نوع، وهل يتصور أن يقوم نحو بدون تصنيف لأقسام الكلم، ولأبواب النحو ...، ودون تجريد أفكار ثابتة ذوات أسماء اصطلاحية كالاسم والفعل والحرف والفاعل والمفعول" (18)

كمـا ذهـب إلى أن التصنيف يستخدم بعض العلاقات في فرز كل صنف من أصناف مفردات العلم على انفراد ويميزه عن غيره، وذهب إلى أن "هذه العلاقات بقسميها (الوفاقية و الخلافية)، هي التي تحكم تماسك النحو باعتباره صناعة مضبوطة."(19)

والتصـنيف يقوم عند تمييز كل صنف، وفرزه على وضع مصطلح لكل صنف حتى يـتم التميـيز، وتتضح الأصناف، وتحدد صورتها فتكون "أعلاماً على موضوعات ومعان يطلقها أصحاب الصناعة، فيفهمها الدارسون من أهل العلم"(20)

والدكـتور حسـان يسـوي بين العلم المضبوط والصناعة كما يسوي بين العلم غير المضـبوط والمعرفة، ورأى أن العرب لم تطلق "اسم الصناعة على اللغة أو فقه اللغة أو المتـن لأنـه علم غير مضبوط"(21)،إلا أنه ذهب إلى أن العلم غير المضبوط أو المعرفة يتمتع ببعض الخصائص التي تقارب خصائص العلم المضبوط، و لا تتمتع ببعضها الآخر فالمعرفة تتمتع بالاستقراء التام، لكن الصناعة تتمتع بالاستقراء الناقص، ولا تتمتع بالحتمية كمـا يتمتع بها العلم المضبوط(22)، وهنا يمكن أن يطرح سؤال ضروري للبحث للتحقق من ذلك: هل النحو صناعة أم أنه معرفة؟

حدُّ النحو عند النحاة:

لابدَّ من الاطلاع على بعض آراء القدماء والمحدثين قبل الإجابة على هذا السؤال حتى

تكـــون الإجابـــة مقـــنعة تستند إلى أقوال العلماء ممن لهم قدم راسخ في هذا العلم، وممن حاولوا تصنيف العلوم والفنون.

فقـــد ذكر ابن خلدون أن الصناعات منها الضروري، ومنها شريف الموضع، وقد سلك الـــنحو في الصناعات عندما ذكر بعض أصحاب النحو في معرض حديثه عن فساد اللسان فذكـــر أن أهـــل العلم خشّوا على القرآن والحديث أن ينغلقا على أفهام الناس إذا ساد فساد اللســـان "فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانيين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات و القواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام يلحقون الأشباه بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصـــوب ، والمبـــتدأ مرفوع، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا علـــى تســـميته إعـــراباً وتســـمية الموجب لذلك التغير عاملاً، وأمثال ذلك وصارت كلها مصـــطلحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة ، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو"(23)

وإذا نظرنا إلى تعريف النحو عند النحاة وجدنا أنه "علم مستنبط بالقياس والاستقراء من كلام العرب"(24)، ومنهم من نقل عن أبي سعيد الفرغان أنه "صناعة علمية ينظفر لها أصـــحابها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم لتعرف النسبة بين صيغة الـــنظم وصـــورة المعنى فيتوصل بأحدهما إلى الأخرى" ونقل عن أبي الحسن الربعي أنه "صناعة علمية يعرف بها أحوال كلام العرب من جهة ما يصح ويفسد في التأليف؛ ليعرف الصحيح من الفاسد"(25)، فمعرفة كل ذلك، والتمييز بين الصحيح والفاسد لا تتأتى إلا إذا وجدت قوانيين وأحكام منظمة ومترابطة ومتناسقة بدقة بالغة حتى نستطيع أن نفرق بينهما، ووجـــود هذه القوانيين والأحكام بهذه الصفة يستلزم أن يكون واضعها على قدر كبير من العلـــم بالمنهج العلمي الخاص بهذا العلم، وقد اتبع طريقة العلوم الأخرى في استنباط تلك القوانيين والأحكام.

أمـــا ابن هشام فقد ذهب إلى أن النحو علم أي صناعة لا يمكن أن تفقد بفقدان العالم بـــه "لأنـــه صناعة مدونة مقررة ، وجد العالم به أم لا"(26)، أي أن النحو صناعة قائمة ومســـتقلة عـــن غـــيرها من الصناعات، لها أركانها وقوانينها وأسسها المقررة المتعارف

عليها، فلا يمكن لأحد المساس بها، سواء وجد العالم بهذا العلم وقوانينه أم لم يوجد.

وهـذا ممـا جعل بعض العلماء المحدثين يرى أن الخصائص العامة التي يستند إليها العلم، ويستمد قوته منها "مدركة في بعض العلوم الموروثة كعلم النحو."(27)

وقـد شـرح الدكتور تمام حسان ارتباط النحو بخصائص العلم المضبوط (الصناعة) وبيّـن كـل خصّيصـة مـن هذه الخصائص وضرب أمثلة عليها، وأكد أنه يتحقق للنحو الموضـوعية و الشـمول و التماسك و الاقتصاد، لذا فهو يعد علماً مضبوطاً"(28)، وقد سـبق شيء مما ذكره، وبهذه الخصائص التي ذكرها بعض العلماء يمكن القول إن النحو العربـي قد توفر فيه الأسس التي لا يمكن العدول عنها، وإذا حدث العدول عنها فإنه يقود "إلـى تـناقض القواعد وتضاربها، واختلاط المصطلحات وتداخلها، والتقول على الظاهرة موضـوع الدراسـة مـالا يـتأتى فـيها"(29)، ويختلط الغث بالسمين من قواعد العلوم وخصائصها، ويقل الضبط فيها، ولا يعرف الصواب من الخطأ.

وقـد نـوّه بعض المحدثين إلى أن المعنى لا ينبغي أن يعتمد عليه اعتماداً كلياً في وضع قوانين صناعة النحو؛ لأن "للصناعة النحوية قوانين وأصولاً خاصة بها، وهي قائمة في أساسها على علاقات لفظية معينة ، وعلى الرغم من أن النحوي لابد أن ينظر إلى المعنى في وضع قواعده وأصوله ، فإن اعتماده على المعنى كان محدوداً، وبقدر معين وبشكل لا يسيء إلى الصناعة النحوية، ولا يخرج عن قواعدها."(30)

ممـا تقدم يمكن أن ندرك أن العلماء المهتمين بالنحو سواء النحاة أو غيرهم قد أدركوا أن الـنحو العربـي يمـتلك مقومـات الصناعة ، وأنهم عندما كانوا يستخدمون مصطلح الصـناعة كانوا يعنون ما يقولون ويعرفون قدر هذا العلم، لكن السؤال الذي يتبادر للذهن :هل هذا الفهم للمصطلح كان منذ ظهوره واستخدامه أم أنه تطور؟ أي أنه كان عاماً شاملاً ثـم تخصـص، أي كـان يطلق على كثير من العلوم والمعارف العربية، فكان عند بعض العلماء يدل على الإنشاء، أو على صناعة الكلام، وغيره من علوم العربية، ثم انحسر في بعـض العلوم التي تتمتع بخصائص العلم المضبوط فأخذ يطلق على النحو، وعمل بعض النحاة على صبغه بعلم النحو، فكان خاصاً بعلم النحو عندهم، أو أنه ظل متداولاً في العلوم

العربية جميعها بلا تخصيص.

تطور استخدام مصطلح الصناعة:

ممـــا لاشـــك فـــيه أن مصـــطلح الصناعة كغيره من المصطلحات، مرَّ بأطوار في الاســـتعمال والاســـتخدام، وبالـــتحديد في علوم اللغة العربية التي تبحث في اللغة وآدابها، وربمـــا كـــان من فضل القول أن نذكر أن دلالة المصطلح قد تكون عامة ثم تخصص في الدلالـــة والاســـتخدام، أو تكـــون خاصـــة ثـــم تعم فيهما أيضاً، وقد سلك هذا المصطلح طريقاًمنهما.

من يطالع بعض المؤلفات العربية يجد أن مصطلح الصناعة سلك المسلك الأول أي كـــان عاماً ثم تخصص عند بعض العلماء، ومن غير شك أنه لا يمكن النظر في المؤلفات العربـــية كلها حتى يتبين ذلك إلا أنه يمكن أن يحكم بنظرة سريعة إلى عينة من المؤلفات التـــي حازت على شهرة واسعة لدى الباحثين والمتعلمين ما أمكن ذلك؛ لأن المؤلفات في علـــوم العربية لا يمكن حصرها بشكل دقيق، ومجال البحث لا يسمح، لذا يمكن التعرض لعينة من هذه المؤلفات على سبيل التمثيل.

وفـــيما يـــبدو أن مصطلح الصناعة بمعناه العام لم يستخدم في القرون الأولى لفجر العلـــوم العربية، ولم يأخذ طابع المصطلح الذي يدل على العلم أو الفن، فلم يقع تحت يدي شيء يدل على استعمال العلماء أو الأدباء لهذا المصطلح، فعلى سبيل المثال ذكر ابن قتيبة الصنائع في معرض حديثه عن تخلي الناس عن الفضائل والعلم بشكل عام و الكتابة بشكل خـــاص في زمنه فقال: "ونبذت الصنائع، وجهل قدر المعروف، وماتت الخواطر وسقطت همم النفوس وزهد لسان الصدق."(31)

وشـــرح ذلـــك الجواليقي فقال :"نبذت الشيء من يدي إذا رميته...، والصنائع جمع صـــنيعة، و هي الإحسان"(32)، أي أنه يقصد بالصنائع المعروف، أي صنعه مع الناس، وليس العلم، كما هو واضح ولا علاقة له بمصطلح الصناعة موضوع البحث.

وهذا المبرد لم يذكر مادة صنع أيضاً عندما تحدث عن سبب تأليف كتابه الكامل، قال :"هـــذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف، ومثل

سائر"(33)، أما المقتضب فلم يجعل له مقدمة ولم يذكر المصطلح .

وهذا الزجاجي في إيضاحه قد جعل العلم فناً من الفنون عندما نصح المؤلفين ببعض النصائح حيث قال :"فحقيق على كل مستهدف عقله للناس ومعرض مقداره من العلم للمعايرة والموازنة بتعرضه بتصنيف كتاب في فن من فنون العلم، أي فن كان من جد أو هزل، أن يثابر على صون ما صانه طول عمره"(34)، أي أنه استخدم مصطلح التصنيف في فن من الفنون، لا الصناعة.

وقد أحجم بعض المصنفين عن تقديم شيء لكتبهم يوضح ما سيعالجه في هذا الكتاب، منهم أبو علي الفارسي إذ إنه لم يذكر مصطلح الصناعة أو أحد مشتقات هذه المادة في المقدمة أو في داخل كتبه، وكان يذكر مصطلح التصنيف في مقدمة بعض الكتب التي يضع لها مقدمة ، وقد ذكر في مقدمة كتاب الإيضاح مصطلح جمع المادة، حيث قال: "فإني جمعت في هذا الكتاب أبواباً من العربية متحرياً جمعها على ما أمر به الأمير الجليل عضد الدولة."(35)

أما في كتابه الأغفال فقد ذكر محقق كتاب سر صناعة الإعراب مقطعا منه يوضح أن أبا علي الفارسي قد استخدم هذا المصطلح عندما تحدث عن الآن فقال :"لأن هذا الضرب من اللغة يدخل في صناعة الإعراب ويتصل بها أشد من اتصال غيره لمكان الاعتلال فيه" (36)

أما تلميذه ابن جني فقد عنون كتاباً له بهذا المصطلح هو: سرّ صناعة الإعراب، وقد ذكر مصطلح الصناعة في مقدمته أيضاً عندما خاطب الرجل الذي طلب منه تأليف هذا الكتاب قائلاً :"وأنت أدام الله عزك ، أعدل شاهد لي بما لي من الغرض بهذه الصناعة الكثير منتحليها ، و القانع بالتمويه فيها ، والقليل محصلها"(37)، كما ذكر بعض مشتقات فعل هذا المصطلح عندما وصف كتابه الخصائص عندما قال :"وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه الخصائص الشريفة : من خصائص الحكمة ، ونيطت به من علائق الإتقان و الصنعة ، فكانت مسافر وجوهه ، ومحاسر أذرعه وسوقه."(38)

فابن جني يستعمل مصطلح الصناعة واشتقاقه الصنعة بين دفتي كتاب سرّ صناعة

ولـم يذكـر هذا المصطلح الأنباري في إنصافه حيث ذكر في مقدمته السبب في تأليفه وذكـر مصـطلح التصنيف والتأليف فذكر أنه "أول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب وألف على هذا الأسلوب"(48)

وبعـض المصنفين يطلق مصطلح الصناعة على تأليف الكلام كما مر وكما ذهب من قـال:"اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة، وقد قيل: ينبغـي للكاتـب أن يتعلق بكل علم، حتى قيل: كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه فيقول: فلان نحوي، فلان فقيه"(49)

أمـا شـارح المقدمة الجزولية فقد ذكر هذا المصطلح وكان يعني به علم النحو عندما قـال: "وأقـول الآن في الباب الأول من هذا الكتاب: إن مقصد النحويين في هذه الصناعة إنمـا هـو الكـلام على أحكام الألفاظ في لسان العرب إما من جهة ذواتها، وإما من جهة طوارئ تطرأ عليها"(50)

ولـم يستعمل ابن مالك المصطلح فيما بين يدي من مصنفات، له فقد ذكر أنه سئل أن يشفع كتابه المسمى تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد بكتب تشتمل على ما خفي من مسائله، وجمع ذلك في الكتابين، وهما في مصاف كتبه ومؤلفاته النحوية(51)

أمـا ابن أبي الربيع الإشبيلي فقد ذكر مصطلح الصنعة بمعنى علم النحو عندما ذكر مزية كتاب الجمل للزجاجي وأنه "قد أجمع مقرئو الصنعة على تقدمه، وأخذ النشأة الصغار بحفظه وتفهمه"(52)

ولم يشر القزويني إليه وإنما قال في مقدمة كتابه: " هذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته تلخيص المفتاح وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له فأوضحت مواضعه المشكلة وفصلت معانيه المجملة"(53) كما أن ابن هشام الأنصاري لم يذكره في مقدمة كتابه أوضح المسالك، فبعد أن ذكر ألفية ابن مالك وغزارة علم هذا الكتاب قال:"وقد أسعفت طالبيه بمختصر يدانيه وتوضيح يسايره ويباريه أحـل بـه ألفاظـه وأوضح معانيه"(54) هذا رغم أنه في النقل السابق عنه عد علم النحو صـناعة ، كما أنه ذكر مصطلح الصناعة في كتابه مغني اللبيب عندما تحدث عن الجهات

التـــي يدخـــل الاعـــتراض على المعرب من جهتها ، قال "وهي عشرة :الجهة الأولى أن يراعي ما يقتضيه ظاهر الصناعة ولا يراعي المعنى"(55) كما ذكره في طيات أوضحه.

وقـــد عـــرض ابن عقيل لسبب شرحه تسهيل ابن مالك قائلا إنه جمعه ليعين: " على استخراج فوائده ويتكفل بتكميل عوائده وتوضيح مقاصده"(56) كما أنه لم يقدم لشرحه ألفية ابن مالك كما يعلم ، ولم يذكر المصطلح.

كمـــا أن السلســـيلي لـــم يذكر المصطلح أو أحد مشتقاته في مقدمته وعندما تحدث عن أهمـــية التسهيل قال مبينا سبب شرحه: "أعظم كتاب في هذا العلم صنف ولم يصل غوره فـــي زمن من الأزمان مؤلف ولكن فيه تعقيد على الفهم فأردت أن أكتب عليه أمثلة ليسهل ذلك"(57)

وقـــد ذكـــر صـــاحب صبح الأعشى هذا المصطلح عندما قال: "فلما كانت الكتابة من أشـــرف الصنائع وأرفعها وأربح البضائع وأنفعها وأفضل المآثر وأعلاها"(58) و هو يعني كـــتابة الآداب العربية وليس علم النحو فقط، ويوضح ذلك قوله عن كتابة الإنشاء: "فالمراد بهـــا كل ما يرجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني"(59) والنحو واحد مما يرجع إليه تأليف الكلام وترتيب المعاني.

وفـــي شـــرح التصريح لم يتعرض لهذا المصطلح وإنما وضح سبب شرحه للتوضيح وذلـــك لكشـــف خفايـــاه وإبراز "أسراره و خباياه وباح بسره المكتوم وجمع شمله بأصله المنظوم"(60) بل إنه لم يتعرض له عندما ذكره ابن هشام في هذا الكتاب المشروح، وإنما شرح معنى كلام ابن هشام كما سيتضح.

و قـــد ذكـــر الرعينـــي سبب تأليف كتابه الفواكه الجنية وأنه قصد فيه" تقرير معانيها (الأجرومـــية) وتحريـــر مبانـــيها مع فوائد جمة وزوائد مهمة"(61) لكنه ذكره في طيات الشرح.

أما السيوطي الذي نقل تعريف ابن هشام من كتابه مقالات هامة السابق وأودعه كتابه الاقـــتراح(62) كمـــا نقل عن غيره، لم يذكر المصطلح في كتابه همع الهوامع، وإنما ذكر فضـــائل الكـــتاب وأنه تأليف "في العربية جمع أدناها وأقصاها وكتابا لم يغادر من مسائلها

صـــغيرة ولا كبـــيرة إلا أحصـــاها ومجموعـــا تشهد لفضله وجموعا قصرت عنه جموع الأواخـــر والأوائل حشدت فيه ما يقر الأعين ويشنف المسامع وأوردته مناهل كتب خاصة عليها"(63)

وكـــذا فعل في مقدمة كتابه الأشباه والنظائر فذكر أن هذا الكتاب لم يسبق إلى "مثله وديـــوان منيف لم ينسج ناسج على شكله، ضمنته القواعد النحوية ذوات الأشباه والنظائر وخرجـــت عليها الفروع السائرة سير المثل السائر"(64) إلا أنه ذكر المصطلح في طيات الكتاب ناقلا عن غيره.

مما سبق يتبين أن بعض العلماء قد ذكر هذا المصطلح في مقدمة عمله، ولم يذكره في المتـــن، ومنهم من ذكره داخل الكتاب، ولم يذكره في المقدمة، والنحاة فعلوا ذلك أيضا إلا أنهـــم اهـــتموا بـــه أكثر من غيرهم، إلا أن بعضهم لم يتخذه مصطلحا شائعا بينهم، وكأن استعماله له كان عارضا في كثير من الأحيان، مما يجعل بعض القراء يحسبه طارئا على الـــنحو العربـــي، أو غـــير مقصـــود، وغـــير معني به، إلا أن بعضهم كان يعني معناه الاصطلاحي، كما سيتضح فيما بعد.

استخدام مصطلح الصناعة في مؤلفات النحو تاريخياً:

يمكـــن القـــول إن مؤلفات ابن جني التي بين أيدينا هي أول مؤلفات استعمل فيها هذا المصطلح إذا استثنينا كتاب الأغفال لأستاذه أبي علي الفارسي؛ لأن الكتاب ما زال لم يطبع فـــيما يـــبدو، فلـــم أســـتطع الحصول عليه، إلا أنه من النقل السابق يتبين أنه قد استعمل المصـــطلح كمـــا استعمله ابن جني فيما بعد، رغم أنه في كتبه المطبوعة لم يستخدمه كما سبقت الإشارة.

فابـــن جنـــي يمكـــن أن يعد سابقا لغيره من الأوائل، ولكن لا يمكن أن يعد أول من اســـتعمل هـــذا المصطلح لما سبق، إلا أن ابن جني استعمله في مؤلفين عملاقين، لا يمكن لأي باحـــث في العربية أن يتجاوزهما لما لهما من أثر واضح في علم العربية، فضلا عن كتابه المنصف الذي شرح فيه تصريف المازني.

وقـــد اختلف المحققون حول أسبقية الخصائص في التأليف؛ لأن ابن جني ذكر كتابه

سر صناعة الإعراب فيه، وذكر هذا الكتاب في الخصائص، وقد ذهب محقق الخصائص إلى موقف وسط، حيث قال: " يبدو لتفسير هذا التدافع أنه ألف الكتابين ووضع نظامهما أولا في وقت مبكر، وكان يزيد فيهما، فقد يلحق بأحد الكتابين شيئا، ثم يحيل في الآخر عليه"(65)

أي أن ابن جني قد بدأ تأليف الكتابين في وقت واحد، واضعا ما يشاء هنا وواضعا ما يشاء هناك، وهذا تفسير لا يلقى قبولا، إلى حد ما؛ لأنك إذا رجعت إلى المواضع التي ذكر فيها الخصائص في كتاب سر الصناعة فإنك تجده يذكر الخصائص في المقدمة عند حديثه عن مرتبة الحركة من الحرف عندما رد على أستاذه أبي علي حيث قال: "وقد ذكرت في كتاب الخصائص فساد هذا القول"(66)

وعند الرجوع إلى المواضع التي ذكر فيها سر الصناعة في الخصائص تجدها في باب العربي يسمع لغة غيره أيراعيها ويعتمد عليها أم يلغيها ويطرح حكمها قال: "وقد ذكرت هذا الموضوع في كتابي (في سر الصناعة) بما هو لاحق بهذا الموضع"(67) وفي باب الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه قال: "وقد ذكرناه (في سر الصناعة)"(68) وفي باب إجراء المتصل مجرى المنفصل وإجراء المنفصل مجرى المتصل، قال: "وقد ذكرت قديماً هذا الموضع في كتابي (في سر صناعة الإعراب)"(69)

من كلام ابن جنى نفسه يمكن القول إن ابن جني قد ألف (في سر صناعة الإعراب) قبل كتاب الخصائص بمدة زمنية جعلته يقول: وقد ذكرت قديماً هذا الموضع، مما يفصل القول في أسبقية تأليف أحدهما.

ومما يدل على أن ابن جني ألف سر الصناعة قبل الخصائص أنه كتب الخصائص في آخر أيام حياته إذ إنه ألفه للملك "المنصور المؤيد بهاء الدولة وضياء الملة"(70) وقد توفي ابن جني في حياة بهاء الدولة، إذ إنه عاش بين بني بويه، في خدمتهم ولازم "عضد الدولة وولده صمصام الدولة، وولده شرف الدولة،وولده بهاء الدولة وفي زمانه مات"(71)

وقد اختلف محققو سر الصناعة حول تسميته فمنهم من ذهب إلى أنه لو سماه (سرّ الصناعة) لكانت تسمية حسنة، ولم يرد عليه اعتراض" ويكون المفهوم من عنوان الكتاب

أنــه يكشــف عــن أسرار تأليف الكلمات من الحروف من جمال أو قبح وتفسير ظواهر الإعــلال والإبــدال والإدغــام التسهيل"(72) ولكن ابن جني أضاف كلمة الإعراب فبرئ التأليف و المؤلف من التهم و الغموض، أي أن كلمة الإعراب ليست ضرورية في العنوان عندهم، وإنما جاءت لإزالة التهم والغموض.

ويعــترض محقق آخر للكتاب نفسه على هذا المفهوم، ويرى أن كلمة الإعراب تعيين الصناعة المرادة، وأن ابن جني يعني بالإعراب هنا التصريف؛ لأنه لا يستطيع الحذف إلا من كان خبيراً بالتصريف، وأنه كان موفقا في اختيار اسم الكتاب؛ "لأنه يدل على موضعه دلالــة دقــيقة إذ لم يكن المؤلف يعني بــ(صناعة الإعراب) إلا صناعة الكلم، وما يحدث فيها"(73) وعليه يمكن القول إن الإعراب جزء من النحو، وهو صنو التصريف، فهما علم النحو المعلوم لدى النحاة.

ويــتوقع القــارئ لكتاب سر الصناعة أن يجد مصطلح الصناعة أو أحد مشتقاته هنا وهــناك كلمــا سنحت له الفرصة، لكن الأمر فيما يبدو عكس ذلك تماما، فإن ابن جني لم يســتخدم هــذا المصــطلح كما هو منتظر منه حسب العنوان، فقد استخدمه أقل من عشر مرات ما بين : الصناعة، والصنعة، والصانع.

فقــد استخدم مصطلح الصناعة عند حديثه عن إضافة الجمل إلى أسماء الزمان "نحو: آتــيك زمن الحجاج أمير، وأوان الخليفة عبد الملك، ثم إنه حذف المضاف الذي هو أوقات وأولــى الظــرف الذي كان مضافا إلى المحذوف الجملة التي أقيمت مقام المضاف إليها، كقولــه تعــالى: (وَاسأَلِ القَرْيَةَ)(74) أي أهلها، هكذا علقت عن أبي علي في تفسيره هذه اللفظةوقــت القــراءة علــيه،وقل مــن يضــبط ذلــك إلا مــن كان متقناً أصيلاً في هذه الصناعة"(75) وهو يقصد هنا بالصناعة أحكام وقوانيين اللغة العربية (علم النحو).

وقد ذكر الصنعة عند حديثه عن جعل الياء بدلا من الجيم في شيرة فقال: "إن الطريق إلى ذلك وإن كان فيها بعض الصنعة أن تقول: إنه أراد شجرة، ثم أبدل الجيم ياء، كما أبــدل الياء جيما في نحو: الإجّل، و علجّ، وفقيمج، ومرّجّ ، فكما كان حكمه أن يدع الشين مفــتوحة، فــيقول: شــيرة، إلا أن العرب إذا قلبت أو أبدلت فقد تغير في بعض الأحوال

حركات الكلمة"(76) وهو هنا يعني بالصنعة بعض قوانيين الإبدال، أو أنه يريد بها بعض التكلف في تفسير ذلك؛ لأن الجيم في شجرة حرف أصلي، و الياء في الكلمات التي أوردها ياء النسب في أغلبها، وهو تشبيه مقلوب.

وقد ذكر مصطلح الصانع عند حديثه عن أصل يُعدى ويُؤدى، فقال: "ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه بل كل واحد منهما يقوم برأسه. أما يعدى فمن الإعداء، وأعديته أي أعنته، ولذلك تقول العامة لسلطانها: أعدني على فلان، أي أعني عليه، ومنه العدو والعداوة؛ لأنها لا تكون إلا مع القوة و الشدة. أما آديته على فلان أي قويته، فيحتمل عندي تأويلين: أحدهما أنه أفعلته من الأداة؛ لأن الأداة يتقوى بها الصانع على عمله، وتكون لام آديته من هذا واوا، لقولهم في جمع أداة: أدوات"(77) وهو هنا لا يقصد بالصانع النحوي فقط بل يجمع غيره ممن يستعمل الأدوات في الصناعات و الحرف الأخرى، بل ربما كان يقصد الحرف والصناعات أكثر من العلوم.

أما كتابه الخصائص فهو غاص بهذا المصطلح ومشتقاته بما يمت بعلم النحو وصناعته وبما جاء على معناه اللغوي، وربما دل شياع استخدامه على تطور في استخدامه عند ابن جني، إذ إن نضوج فكرة هذا المصطلح تؤدي إلى استخدامه كثيرا، وربما أيضا دل على أن كتاب الخصائص كُتب متأخرا عن غيره من كتب ابن جني لنضوج هذا المصطلح عنده، فقد استخدمه أكثر من خمسين مرة بمعان شتى، لكن نادرا ما يستخدمه بمعناه اللغوي.

لذا يعرض البحث لبعض المواضع التي استخدمه فيها، لتدل على كثرة استخدمه له فمنها ما جاء عنونا لباب من أبوابه كما يلاحظ ذلك بأدنى نظر، ومنها ما جاء في طيات كتابه.

فمما جاء عنوانا لباب (باب في أن المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به إلا أن يعترض هناك من صناعة اللفظ ما يمنع منه)، ومنها باب (في قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف لا بالإقدام والتعجرف) ومنها باب (في خصوص ما يقنع فيه العموم من أحكام صناعة الإعراب)

ومما جاء في طيات الخصائص من نحو تفريقه بين الكلام والقول، قال: "إنما الكلام هو في لغة العرب، عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها، المستغنية عن غيرها وهي يسميها أهل هذه الصناعة الجمل، على اختلاف تركيبها، وثبت أن القول عندها أوسع من الكلام تصرفا وأنه قد يقع على الجزء الواحد وعلى الجملة وعلى ما هو اعتقاد ورأي لا لفظ وجرس"(78)

وما جاء عند حديثه عن أصل الياء في ديمة وديم، قال: "فإن قلت: فلعله فعِل يفعِل من الواو، كما ذهب الخليل في طاح يطيح وتاه يتيه، قيل: حمله على الإبدال أقوى، ألا ترى أنه قد حكي في مصدره ديماً، فهذا مجتذب إلى التاء ومدرج إليها ، مأخوذ به نحوها، فإن قلت: فلعل الياء لغة في هذا الأصل كالواو بمنزلة ضاره يضيره ضيرا، وضاره يضوره ضورا. قيل: يبعد ذلك هنا ألا ترى إلى اجتماع الكافة على قولهم: الدوام، وليس أحد يقول الديام، فعلمت بذلك أن العارض في هذا الموضع إنما هو من جهة الصنعة لا من جهة اللغة"(79) وهو يريد هنا إبدال الواو ياء في ديمة وديم وليست الياء أصلا فيها.

وما جاء في مدحه باب تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني، قال: "وهذا باب إنما يجمع بين بعضه وبعض من طريق المعاني مجردة من الألفاظ، و ليس كالاشتقاق الذي هو من لفظ واحد بعضه منبه على بعض وهذا إنما يعتنق فيه الفكر المعاني غير منبهة عليها الألفاظ فهو أشرف الصنعتين وأعلى المأخذين فتفطن له وتأن لجمعه، فإنه يؤنقك ويفيئ عليك ويبسط ما تجعد من خاطرك و يريك حكم الباري ــ عز اسمه ــ ما تقف تحته، وتسلّم لعظم الصنعة فيه، وما أودعته أحضانه ونواحيه"(80)

وما جاء في ما نقله عن أبي الحسن من أنه "سأل أعرابيا عن تحقير الحبارى، فقال: حبرور، وهذا جواب من قصد الغرض، ولم يحفل باللفظ إذ لم يفهم غرض أبي الحسن فجاء بالحبرور؛ لأنه فرخ الحبارى وذلك أن هذا الأعرابي تلقى سؤال أبي الحسن بما هو الغرض عن الكافة في مثله، ولم يحفل بصناعة الإعراب التي إنما هي لفظية ولقوم مخصوصين من بين أهل الدنيا أجمعين، ونحو من ذلك أني سألت الشجري، فقلت: كيف تجمع المحرنجم ؟ فقال: وأيش فرقه حتى أجمعه! وسألته يوما فقلت: كيف تحقر الدمكمك؟

فقال: شخيت. فجاء بالمعنى الذي يعرفه هو ولم يراع مذهب الصناعة"(81)

وهـو هـنا يذكر سؤال أبي الحسن عن تصغير الحبارى فرد الأعرابي بما عنده من المعنى ولم يلتفت لقواعد التصغير عند الصرفيين ومثله أيضا سؤال ابن جني للشجري عن جمـع التكسـير لمحـرنجم فكان رد الشجري على معنى السؤال بأنه ليس متفرقا فكيف يجمعه؟ وسأل عمن فرقه، وعن سؤاله عن تصغير الدمكمك رد بالمعنى المتبادر في ذهنه فقال: شخيت أي الضعيف لأنه عكس القوي.

ومـنها مـا جاء عند حديثه عن جمع دانق على دوانق بالزيادة في أصله وقاسه على تصـغير رجل على رويجل فقال: "كذلك قولهم في تحقير رجل: رويجل، فهذا ليس بتحقير رجل لكنه نقله إلى فاعل فصار إلى راجل ثم حينئذ قال في تحقيره: رويجل، وعليه عندي قولهم في جمع دانق: دوانق، وذلك أنه زاد على فتحة عينه ألفا فصار داناقا، ثم كسره على دوانـيق، كسـباط و سـوابيط. ولا يحسن أن يكون زاد حرف اللين على المكسور العين مـنهما؛ لأنـه كان يصير حينئذ إلى دانيق، وهذا مثال معدوم عندهم ألا ترى أنه ليس في كلامهم فاعيل، ولك في دانق لغتان: دانَق ودانِق ...، وإن شئت قلت: لمّا كسره فصار إلى دوانـيق أشـبع الكسرة فصار دوانيق كالصياريف والمطافيل، وهذا التغيير المتوهم كثير، وعليه باب جميع ما غيرته الصنعة عن حاله، ونقلته من صورة إلى صورة"(82)

وما جاء عند حديثه عن ألف هاهيت وعاعيت وحاحيت، قال: "فهذه الألف عندهم الآن فـي موضع العين ومحكوم عليها الانقلاب وعن الياء أيضا، وإن كان أصلها ألفا أصلاً في قولهم :هاء، وعاء، وحاء، فهي هناك كألف قاف، وكاف، ودال، ولام، أصل غير زائد ولا منقلبة عن ياء عندهم، أفلا ترى إلى استحالة التقدير فيها، وتلعب الصنعة بها"(83)

وهو يقصد الألف الثانية عند اتصالها بتاء ضمير الفاعل؛ فإنها تقلب كما نعلم ياء في الفعل نحو: سقى: سقيت.

وربمـا ذكـر ابـن جنـي بعض مشتقات المصطلح، كما جاء عند حديثه عن النعت بالمصـدر "نحـو قولـك: هذا رجل دنف، وقوم رضا، ورجل عدل، فإن وصفته بالصفة الصـريحة قلـت: رجـل دنـف، وقوم مرضيون، ورجل عادل، هذا هو الأصل، وإنما

انصـرفت العـرب عـنه فـي بعض الأحوال إلى أن وصفت بالمصدر لأمرين: أحدهما صـناعي، والآخر معنوي، أما الصناعي: فليزيدك أنسا يشبه المصدر للصفة التي أوقعته موقعهـا...، أمـا المعـنوي؛ فلأنه إذا وصف بالمصدر صار الموصوف كأنه في الحقيقة مخلوق من ذلك الفعل"(84)

وربما استخدمه بمعناه اللغوي وهو العمل كما جاء عند حديثه عن بعض الشعراء إذ إنه مع بعضهم اشترط عليه أن "يعمل في ليلته تلك مائتي بيت في ثلاث قصائد على أوزان اخترناها عليه ومعان حددناها له، فلما كان الغد في آخر النهار أنشدنا القصائد الثلاث على الشروط والاقتراح، وقد صنعها، وظاهر إحكامها، وأكثر من البديع المستحسن فيها"(85)

وقـد يستخدمه أو بعض مشتقاته بمعنى آخر كالمجاملة وذلك نحو ما جاء عند حديثه عـن كلامـه مـع أبـي علي الفارسي عن وزن حوريت إذ سأله أبو علي: "ما تقول في حوريـت؟ فخضنا فيه، فرأيناه خارجا عن الكتاب، وصانع أبو علي عنه بأن قال: إنه ليس مـن لغـة ابني نزار فأقل الحفل به لذلك، وأقرب ما ينسب إليه أن يكون فعليتا، قريبا من عفريت"(86) أي أنه جامل صاحب الكتاب لعدم وجود هذه اللفظة في الكتاب، بأنها ليست من لغة ابني نزار، وكأن الكتاب جمع لغتهما فقط.

وقـد مـرّ سـابقا في تعريف علم النحو أن السيوطي نقل تعريف الربعي علي بن عيسـى، وتعـريف الفرغاني كمال الدين أبو سعيد للنحو أنه صناعة، وهو ما بدل انتشار استخدام هذا المصطلح.

ومـن المؤلفـات التي استخدمته في المتن شرح المقدمة الجزولية حيث ذكره مرات قلـيلة بمعناه الاصطلاحي، وذلك عند حديثه عن تأويل بعضهم تأنيث الأجناس على تأويل أن الاسـم لم يؤنث، والمراد به الجنس، وإنما أنث، والمراد به الشخص، ثم استعمل ذلك الاسـم في غيره على جهة البدل، و كان الثاني بدلا من الأول ، قائلا: "وهذا التأويل الذي تأولـه المتأول حكي عن أبي موسى الجزولي الذي تنسب إليه هذه الكراسة، وإنما يصلح بكلـم نحـوي مخلط صناعة النحو بصناعة المنطق، ولا أدري ما الذي أحوجه إلى خلط إحـدى الصـناعتين بالأخـرى"(87) وهو ينعى على هذا المتأول الخلط بين علمي النحو

والمنطق ليسلم له التأويل، أي أنه يرفض الخلط بين هذين العلمين.

كمـــا جـــاء هذا المصطلح عندما تحدث على لسان الخليل عن تركيب (لن) فقال: "قال الخليل: فإذا كان المأخذ في هذه الصناعة هكذا، أعني تقليل الأصول، لا تكثيرها وجب أن نسلك ذلك المسلك في لا، ولن، ولأن، فلا تقول: إنها ثلاثة أصول، ولكن أحدها فرع عن الآخرين، وتكون لن مأخوذة من لا وأن...، إلا أن سيبويه رحمه الله يعترض مع هذا عليه بقولـــه أيضـــا: لو كانت مركبة من لا أن، لكانوا خلقاء أن ينبهوا على ذلك بأن لا يجيزوا تقديم معمول معمولها عليها...، وللخليل رحمه الله أن يقول: مأخذنا في هذه الصناعة إنما هـــو لتقلـــيل الأصـــول ما أمكن لا تكثيرها" (88) وهذا المصطلح لم يرد في الكتاب في الموضع الذي تحدث عنه، لاعن الخليل ولا عن سيبويه(89)

وقد ورد هذا المصطلح عند ابن هشام في أوضحه بمعناه الاصطلاحي عند حديثه عن المفعـــول معه في نحو: قمت وزيداً، إذ ذهب إلى أنه لا يجوز العطف في نحو هذا المثال "مـــن جهة الصناعة"(90) أي أنه يرى عدم جواز عطف الاسم الظاهر على ضمير الرفع المتصـــل بـــالفعل بلا فاصل، كما ذكر ذلك الأزهري إذ قال: "لأنه لا يحسن العطف على الضمير المرفوع المتصل إلا بعد توكيده بضمير منفصل أو بأي فاصل كان"(91)

وقد ورد عند ابن هشام بمعناه اللغوي، وذلك عند حديثه عن عدم اختصاص فتح نون المثنى بعد الياء في قول الشاعر:

أعرف منها الجيد والعينانا ومنخرانِ أشبها ظبيانا

فذهب إلى أن هذا لا تختص به الياء، أي عندما يكون المثنى منصوبا أو مجرورا، قال: "وقيل البيت مصنوع"(92) أي أن البيت من وضع بعض النحاة أو غيرهم، وليس من قول الشعراء.

وجاء في مغني اللبيب بمعناه الاصطلاحي في الباب الخامس عند ذكره الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها، فقال الجهة الأولى: أن يراعى ظاهر الصناعة، ولا يـــراعى المعنى وكثيرا ما تزل الأقدام بسب ذلك، وذكر أمثلة على ذلك منها: ما قاله في تعلق(إلى أجله) من قوله تعالى:(وَلَا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ)(93)

فقال: "المتبادر تعلق إلى بتكتبوه وهو فاسد لاقتضائه استمرار الكتابة إلى أجل الدين وإنما هو حال أي مستقرا في الذمة إلى أجله"(94)

وذكره عند حديثه عن الجهة الثانية وهي: أن يراعى المعرب معنى صحيحا ولا ينظر في صحته في الصناعة، وأورد عددا من الأمثلة على ذلك منها على سبيل المثال إعراب ثمود من قوله تعالى: (وَثَمُودَ فَمَآ أَبۡقَى)(95) قال: إن بعضهم يقول: "إن ثمود مفعول مقدم، وهذا ممتنع؛ لأن لما النافية الصدر فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها وإنما هو معطوف على (عادا)، أو هو بتقدير وأهلك ثمودا"(96) وهو هنا يقصد بالصناعة قواعد علم النحو وقوانينه التي خطّها النحاة لأنفسهم وساروا عليها.

وقد نقل السيوطي التعريفات التي أشير إليها في حينه، وحاول إدخال هذا المصطلح في ما كان ينقله في كتابه عن غيره من العلماء، كما جاء في حديثه عن إسناد الفعل للمفعول على لسان سيبويه فقال: "إن العرب لما قوي في أنفسها أمر المفعول حتى كاد يلحق عندها برتبة الفاعل وحتى قال سيبويه فيهما: وإن كانا جميعا يهمانهم و يعنيانهم خصوا المفعول إذا أسند الفعل إليه بضربين من الصنعة أحدهما تغيير صيغة المثال مسندا إلى المفعول ...، والآخر أنهم لم يرضوا ولم يقنعوا بهذا القدر من التغيير حتى تجاوزوه إلى أن غيروا عدة الحروف مع ضم أوله"(97)

وهو هنا يقصد بالصنعة علم النحو وقوانينه وقواعده، ولكن هذا المصطلح لم يرد في كتاب سيبويه في الموضع الذي ذكره السيوطي(98)

وقد ذكر السيوطي أن هناك كتابا لابن النحاس بعنوان (صناعة الكتاب) وهو في النحو كما يدل النقل، وذلك عند حديثه عن حذف حرف النداء مع لفظ الجلالة وعدم تعويضهم منه، فقال: "وقد قال ابن النحاس في صناعة الكتاب ما نصه جواز ذلك، فإنه قال في قولك: سبحانك الله العظيم، أنه لا يجوز الجر على البدل من الكاف ويجوز النصب على القطع والرفع على تقدير: يا الله"(99)

وقد ينقل عن غيره من العلماء نصا فيه استخدام لهذا المصطلح ، كما فعل مع ابن جني(100) والنقل كثير عنده.

وذكـر الرعينـي هذا المصطلح بمعناه الاصطلاحي عند حديثه عن رجحان النصب علـى المفعـول معه "على العطف ،لأمر صناعي ، نحو: قمت وزيدا؛ لأن العطف على ضـمير الـرفع المتصل لا يحسن إلا مع الفصل " (101) أي لابد من توكيده أو فصله كما سبق.

مـن دراسـة هذه العينة السابقة يمكن القول إن مصطلح الصناعة قد ظهر متأخرا في علم النحو وغيره من العلوم العربية، وقد شاع استخدامه بشكل واسع في علوم العربية إلا أن النحاة قد حاولوا استخدامه بشكل دقيق ليدل على علم النحو من قوانيين وقواعد.

كمـا تبين من العينة العشوائية أن أول إشارة إلى استخدام هذا المصطلح كانت عند أبـي على الفارسي، ثم توسع فيه ابن جني توسعا ملموسا ، ودل نقل السيوطي عن غيره من العلماء أن بعضهم كان يستخدم هذا المصطلح كما ذكر سابقا من أن الربعي والفرغان عرفا النحو بأنه صناعة، ونقل عنوان كتاب ابن النحاس صناعة الكتاب.

كما عرف في الأندلس واستخدمه الأستاذ أبو علي الشلوبين، وقد ذكره السيوطي، كما ذكره الرعيني شارح الأجرومية.

وهـذا الاسـتعمال الواسع يدل دلالة قطعية على أن هذا المصطلح قد شاع بين النحاة شرقا وغربا بمعناه الاصطلاحي، ويدل على محاولة النحاة قصره على علم النحو العربي، لمـا له مـن قوانيين وقواعد يمكن أن يطلق عليها صناعة أو العلم المضبوط، لما له من ضوابط، وهناك من النحاة من لم يستخدمه في كتبه التي وقعت تحت يدي.

هوامش البحث ومراجعه

1)المصري، ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ب ت (صلح)516/2

2)عبد التواب، دكتور رمضان، دراسات وتعليقات في اللغة، الخانجي، مصر، 1994م، ص30

3)حجازي، دكتور محمود، اللغة العربية في العصر الحديث، دار قباء، القاهرة، 1998م، ص 37

4)البقري، دكتور أحمد ماهر، النحو العربي شواهده ومقدماته، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1988م،ص82

5)اللسان(صنع)208،209/8

6)ابن دريد، أبو بكر محمد، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1991م،ص72، انظر العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي،تحقيق دكتور مهدي المخزومي ودكتور إبراهيم السامرائي، دار الهلال، بيروت،ب ت 1/ 304

7)العين305/1

8)الجرجاني،علي الشريف، كتاب التعريفات، تحقيق دكتور عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، ب ت، ص152 وانظر التوقيفات على مهمات التعاريف، محمد المناوي ، تحقيق دكتور محمد الداية، الفكر المعاصر، بيروت، 1990 م، ص463

9)الكفوي، الكليات، أبو البقاء، تحقيق دكتورعدنان درويش وغيره، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، ص544

10)الزمخشري، محمود جار الله، الكشاف، انتشارات، تهران، ب ت 627/1

11)ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، دار الهلال، بيروت، 1988م، ص254

12)السابق ص344

13)السابق ص347،13

14)كتاب التعريفات للجرجاني ص152

15)الملخ، دكتور حسن،التفكير العلمي في النحو العربي،دار الشروق، الأردن، 2002م، ص13

16)عبد العزيز ،دكتور محمد،مدخل إلى علم اللغة،مكتبة الشباب،القاهرة،1992م، ص 25وما بعدها

17)حسان، دكتور تمام، الأصول، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر،1982م، ص13-16

18)السابق ص15

19)السابق ص62

20)المخزومي، دكتور مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها، عيسى البابي الحلبي، مصر، 1958م، ص303

21)الأصول للدكتور تمام حسان ص17

22)السابق ص17

23)مقدمة ابن خلدون ص339

24)العكبري، أبو البقاء، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق دكتور عبد الإله نبهان، دار الفكر، دمشق، 1995م، ص 40

25)السيوطي، جلال الدين، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ص 15

26)التفكير العلمي في النحو العربي ص13
27)الأصول للدكتور تمام حسان ص60-64
28)عبد العظيم، دكتور أحمد، المصطلح النحوي، دار الثقافة، القاهرة، 1990م ص2.
29)الأنصاري، ابن هشام، مقالات هامة، تحقيق دكتور نسيب نشاوي، دار الجيل، بيروت،1991م ،ص97،وقد ذكر ذلك جلال الدين السيوطي في الاقتراح ص13
30)علوش، دكتور جميل، الإعراب والبناء، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، 1997م، ص91
31)ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب،تحقيق محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت،1982م ص6
32)الجواليقي، موهوب، شرح أدب الكتاب،دار الكتاب العربي، بيروت، ب ت. ص26
33)المبرد،محمد بن يزيد، الكامل، تحقيق د.محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م1/2،1
34) الزجاجي ،الإيضاح في علل النحو، تحقيق دكتور مازن مبارك ، دار النفائس، بيروت ، 1986مص37
35) الفارسي،الحسن بن أحمد،الإيضاح، تحقيق د. كاظم المرجان، عالم الكتب، بيروت،1996م ص71
36) ابن جني، عثمان، سر صناعة الإعراب، تحقيق الدكتور حسن هنداوى، دار القلم، دمشق، 1993م 24/1
37)السابق 20/1 وتحقيق مصطفى السقا وغيره 1954م3/1
38)ابن جني، عثمان،الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة العامة للكتاب، مصر، 1999م 1،2/1
39)العسكري،الحسن بن عبد الله ، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي وغيره، عيسى البابي الحلبي، مصر، ب ت ص8
40)السابق ص139
41)السابق ص 11
42)الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ب ت ص45
43)الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق محمد شاكر، دار المدني، جدة، 1991م ص3
44)القيرواني،إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، قدم له د. صلاح الدين الهواري،المكتبة العصرية، بيروت، 2001م 21/1
45)البطليوسي،عبد الله بن محمد، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق مصطفى السقا وغيره، الهيئة العامة للكتاب، مصر،1981م27/1
46)الزمخشري ، محمود ، المفصل ، تحقيق محمد عز الدين السعيدي، دار إحياء العلوم، بيروت، 1990م ص14
47) ابن يعيش، موفق، شرح المفصل، مكتبة المتنبي، القاهرة، ب ت 17/1
48)الأنباري، عبد الرحمن،الإنصاف في مسائل الخلاف،تحقيق محمد محيي الدين، دار إحياء التراث، مصر، ب ت 1/ 5
49)ابن الأثير، نصر الله، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت،1990م 27/1
50) الشلوبين، عمر بين محمد،شرح المقدمة الجزولية، تحقيق د.تركي بن سهو العتبي، مكتبة الرشيد، الرياض،1993م 192/1

51)ابن مالك، محمد، شرح التسهيل، تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد والدكتور محمد المختون، هجر، القاهرة، 1990 م1/3

52)ابـــن أبـــي الربيع، عبيد الله، البسيط في شرح الجمل، تحقيق دكتور عياد الثبيتي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م1/156

53)القزويني، الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق د. محمد خفاجي، دار الجيل، بيروت،1993م 16/1

54)ابـــن هشـــام ، عبد الله ، أوضح المسالك إلي ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، ب ت 10/1

55) ابـــن هشام،عبد الله ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية، بيروت ،1991م 605/2

56) ابن عقيل،عبد الرحمن، المساعد على تسهيل الفوائد، دار المدنى، جدة، 1984م1/1

57) السلمـــيلي،محمد بـــن عيسى،شفاء العليل في إيضاح التسهيل،تحقيق د.الشريف البركاتي،مكتبة الفيصلية، بيروت، ب ت93/1

58) القلقشندي،أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر،1963م 6/1

59) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء 54/1

60) الأزهري، خالد، شرح التصريح على التوضيح، عيسى البابي الحلبي، مصر، ب ت3/1

61)(الرعيني،عبد الله الفاكهي، الفواكه الجنية على متممة الأجرومية، دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1996م: ص7

62)الســـيوطي،جلال الديـــن، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.: ص13

63) الســـيوطي،جلال الدين، همع الهوامع شرح جمع الجوامع، عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني، مكتبة الخانجي، مصر ، 1327هـــ : ص175

64) الســـيوطي، 1984مجـــلال الديـــن عـــبد الرحمن،الأشـــباه والنظائر،تحقـــيق دكـــتور فايز ترحيني، دار الكتاب العربي،البيضاء، 1984م1/22

65)ابن جني الخصائص71/1

66)ابن جني سر صناعة الإعراب 33/1

67) الخصائص 17/2

68) السابق 86/2

69) السابق 97/3

70) السابق 1/1

71) القفطي،جمال الدين، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1973م 340/2

72) في سر صناعة الإعراب (1954م) :12

73) في سر صناعة الإعراب (1985م) 25/1
74) سورة يوسف آية:82
75) في سر صناعة الإعراب 24/1
76) السابق765/2
77) السابق237/1
78) الخصائص 33/1
79)السابق 357/1،356
80) السابق 135/2
81) السابق 468/2
82) السابق 121/3
83) السابق 234/3
84) السابق 262/3
85) السابق 328/1
86) السابق 210/3
87) شرح المقدمة الجزولية : ص314
88) السابق : ص374،373
89) سيبويه،عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة العامة للكتاب، مصر، 1975م407/1
90) أوضح المسالك245/2
91)شرح التصريح على التوضيح 345/1
92) أوضح المسالك67/1
93) سورة البقرة آية:282
94) مغني اللبيب 608/2
95) سورة النجم آية:51
96) مغني اللبيب 618/2
97) الأشباه والنظائر 376/1
98)الكتاب34/1
99) الأشباه والنظائر 127/2
100) السابق 209/2
101) متممة الأجرومية: ص175